

المرأة في دمشق (**)

نصر الدين البصرة

تكن صورة واحدة ، تلك التي رسمها للمرأة في دمشق ، الدكتور كاظم الداغستاني في كتابه الجميل « عاشها كلها » ، بل هي مجموعة ملونة من الصور ، بعضها يتوغل في أعماق الحياة الاجتماعية في المدينة ، وبعضها يغوص في غياهب النفس الأنثوية ، وبعضها الآخر يضرب على الوتر الأكثر حساسية : المال .

.. لقد أحب الدكتور الداغستاني ، في مقتبل شبابه صبية من دمشق ، هي من أسرة ، اشتهر أهلها في مجالات الأدب والسياسة والمال ، لكنه أثر اغفال ذكر اسمها ، وابتكر اسماً مستعاراً للحبيبة ، هو « عائشة » . وقد دعاها كذلك لأنها ظلت عائشة في قلبه وذكرياته حتى أيامه الأخيرة ، وهو الذي عاش حتى ثمانينات العمر .

لقد رآها للمرة الأولى ، في منزل الأسرة الكبير ، تحيط به الحداث من كل جانب في حي « سكة الصالحية » جاءت بين الضيفات اللواتي كن يترددن إلى هذا المنزل بين وقت وآخر في فصلي الربيع والصيف ، وهن في الأغلب قريبات أو صديقات لهؤلاء القريبات ، يفدن إلى الصالحية من دمشق .. القديمة ، وكان بعضهم يدعوها « المدينة » ..

(**) معاضرة القيت بتكليف من اتحاد الكتاب العرب - فرع دمشق في المركز الثقافي العربي بدمشق بتاريخ الثلاثاء ١٩٩٤/٩/٢٧

« حاولت حينما رأيته أن تسدل برقعها الأسود على وجهها ، لكن أختها قالت لها : انه من الأقارب ، وانه لا يبرح صبياً لا حرج من سفورها أمامه ، لا سيما أنها صبية أيضاً ، وحديثه عهد بالحجاب . »

ووقفت معه تتحدث اليه . ورأى حينئذ كما لم ير من قبل : هيفاء سمراء كحلأ ولا أروع . برقت في عينيها السوداوين أشعة قوية أخاذة تنعكس على وجه ناعل ، تبدت فيه مسحة من رصانة فاتنة . »

« لقد سمع صاحبنا الصبي - أي الدكتور الداغستاني - كثيراً عن عائشة هذه ، من أخت عائشة زوج قريبه . ولقد هز كيانه أن يراها اليوم سافرة أمامه ، فيحس وكأنه قد تعشّقها من قبل ، تثير في نفسه هذه الرعشة المفاجئة التي لم يعرف منشأها ومآلتها . »

كان الحديث بينهما خاطفاً متقطعاً لا يشبه حديث الصبايا والصبيان ، أو الفتيات والفتيان حين يتلاقون ، بل حديث السجناء الذين حبسوا طويلاً في حجيرات منفردة مظلمة ، وقد التقوا منطلقين على غير موعد ، وفي وضوح النهار ، تأخذهم الدهشة ، ويبهر أبصارهم النور .

قالت عائشة لأختها وهي تبارح البيت ، انها عائدة في صباح الغد الى الصالحية . . . قالت ذلك ، وهي تبسّم له ، وتحتويه بنظرة حنان ، تثير في أعماقه خلجات وخفقات ما عرفها من قبل « (١) . »

« . . . وتنقضي أيام الصيف ، وهما لا يلتقيان الا لماماً ، يكاد تحجب عائشة وسلطة ذويها المتحكمة أن يحولاً دائماً دون لقائهما . »

وتقوم قريبة لهما وهي صبية حاذقة طيبة القلب ، عرفت من شؤونهما ما جعلها وفيه لهما ، تنقل بينهما ما يبقي هذه الصلة قائمة لا تنقطع .

ومرت سنوات عجلت متتاليات ، تبادلا خلالها وفي الخفاء رسائل وهدايا ، والتقيا بعض سويعات بريئة خاطفة ، وفي ظروف صعبة حرجة « (٢) . »

« . . . ثم ماذا بعد ؟ »

أصبح الصبي ، أو الفتى ، شاباً . وما دام من أسرة ميسورة ، مثلها مثل أسرة عائشة التي تملك اقطاعات ومزارع في غوطة دمشق^(٢) ، فماذا يمنع من أن يتقدم الى خطبة هذه الحبيبة . لقد فعل ذلك ، غير أن أهلها أبوا .

لماذا ؟ ..

ان الدكتور الداغستاني في الاجابة عن هذا السؤال ، يلقي الضوء ، على التقاليد والأعراف ، لدى هذه الشريحة الاجتماعية . وأهلها من مالكي الأراضي والمزارع ، هنا .. أو هناك ، أو من التجار الأثرياء .

انه لا يفسر فحسب ، بل يذهب بعيداً ، ليصل الى الأسباب الحقيقية ، المادية ، وراء مثل ذلك العذر « المانع الواهي » من الموافقة على عقد مثل هذا الزفاف ، ذاك أن أهل « عائشة » تذرعوها بتلك « الصلة التي قامت في الخفاء بين الخطيبين على غير علم من رجل الأسرة المتحكم بعد أن نقل اليه خبرها الواشون »^(٤) .

.. ربما ذكرنا هذا في ظاهره ، بما حدث لبعض مشاهير العشاق العرب في التاريخ القديم ، يوم كان أهل الحبيبة ، يرفضون زواجها ، ممن شرب بها .. وقال شعراً فيها ، لكنه في باطنه أمر آخر .

يقول الدكتور كاظم الداغستاني :

« لقد كانت عائشة يتيمة الأبوين وذات ثروة ورثتها عنهما . وكثيراً ما كانت ثروة الفتيات في البلد الذي نعيش فيه وبالأعلى عليهن . حينما يعمد القوامون عليهن من الرجال ، فيحرصون على إبقاء هذه الثروة في الأسرة ، أو يتدبرون الأمر فيمنعونها عن سواهم من الأصهار لكي يحتفظوا بها فيورثوها أولادهم من بعد . »

.. وكثيرات في البيوتات الشامية الكبرى ، أولئك اللواتي ، هن مثيلات عائشة ، حبسن في قماقم قديمة مرصودة ، صنعت من فضة محلاة بالذهب ، محكمة الاغلاق ، لا يستطعن كسرها أو الافلات منها ، إلا وقد تخطين سن الزواج ، وأشرفن على الأربعين أو الخمسين من عمرهن . »

ويستطرد الدكتور الداغستاني قائلاً :

« وقد يجد المرء في البيت الشامي الكبير الواحد ، حتى اليوم - والكلام في أواخر الستينات - ثلاثاً أو أكثر من أولئك العانسات اللواتي يعشن وحدهن ، أو بيت أخواتهن أو أولاد أخوتهن ، ويطلقن عليهن في الأسرة، لقب : الخانمات العمات أو الخالات » (٥) •

ليس هذا فحسب ، بل إنهن مع الأيام يكتسبن وظيفة مربيات، يقمن بتربية « أولاد البيت والعناية بشؤونهم عناية مخصصة وفيه • ثم لا يحجمن عن الرضا، بأن يورثنهم ما كنّ ورثنه من ثروة ، وقد يجدن في ذلك شيئاً من عزاء أو سلوى » (٦) •

• وفي الحق فاني عايشة وعرفت حالات كثيرة تشبه الحالة التي تحدث عنها الدكتور الداغستاني ، من ذلك مثلاً ، صبيتان ، كانتا من أجمل الصبايا في حي القيمرية الذي عشت فيه زمناً • مع ذلك فانهما أمضتا حياتهما عانسين ، ولم يقدر لقلبيهما ، أن يخفقا حتى خفقة حب واحدة • وهما من أسرة معروفة في ذلك الحي •

في هذا الحي الذي كان يدعى « الهند الصغيرة » لسكنى عدد من تجار المدينة فيه ، عرفت امرأتين ، طعنتا في السن ، دون خطبة أو زواج للسبب نفسه •

والأطرف أن أخويهما، عاشا مثلهما في المنزل نفسه ، مفردين عزيزين • وكان الأول صيدلانياً ، صاحب صيدلية قديمة في باب البريد ، والثاني موظفاً كبيراً ومن رجالات الدولة المودودين •

انتقل الصيدلاني إلى رحمته تعالى قبل أخيه • وقيل يومها في الحي إن أخاه ورث عنه « تنكة » ملأى بالليرات الذهبية •

وبعد أن توفيت شقيقتهما الكبرى، ظلت الصغرى في رعاية الأخ الآخر ، لكنها ، وقد أمست في أواخر العمر ، تكالبت عليها الأمراض ، فانصرف شقيقها إلى رعايتها وتمريضها • وقد شكّا لي هذا الهم ، إذ كنت ألتقيه في المقهى غير مرة •

حدثتني النفس مرة أن أتقدم إليه باقتراح ، متجاهلاً ، ما أنا متأكد من وفرفته بين يديه من سيولة مالية يسيل لها اللعاب .

قال : أنا مستعد أن أصغي جيداً إلى اقتراحك ، ولكنني لا أعدك بأن أعمل به ، ففضل .

قلت : أنتما تقيمان في دار كبيرة فيها بضع عشرة غرفة ، وحديقة ، وباحة واسعة . وأنا أرى أن تبيع هذه الدار ، وعندئذ تستطيع أن تشتري منزلاً مناسباً وأن تستأجر ممرضة تسهر على راحة شقيقتك وصحتها . وتقدر أنت أن تشتري سيارة جديدة ، وتتعاقد مع سائق . يروح ويغدو بك ، حيث تشاء ، بدل الركوب في باصات النقل الداخلي . وانتظار مجيء واحد منها ، وأنت في الانتظار ، تحت أشعة الشمس اللاهبة ، أو بين أيدي المطر المنهمر في الشتاء . . . اغتصب الرجل ابتسامة ، لا تخلو من انزعاج شديد حاول أن يكتمه . ثم قال :

— لقد وعدتك بأن أصغي إلى اقتراحك . . . وهأنذا قد سمعت فشكراً .

. . . عرفت أيضاً امرأة ، بين الأقرباء ، كان إخوتها من أصحاب الاقطاعات الباذخة ، لكنها وقد زفت إلى رجل ، موظف عادي ، حرمها إخوتها من ميراثها ، وظلت سنوات وسنوات . . . تتردد إلى المحاكم ، في انتظار عودة حقها من الميراث إليها .

وتحضرني الآن حكاية ظريفة ، حدثت لواحد من أقربائي أيضاً . يومها كان الرجل في خمسينات العمر ، وقد توفيت زوجته حديثاً ، في حين تزوجت بناته جميعاً ، كذلك فعل ابنه الوحيد . لكنه كان ذا نضارة وأناقة . . . لا يصدق من يراه أنه زاحف نحو الستين .

سمع يوماً بامرأة من العوانس العمات ، تكبره بأكثر من خمسة عشر عاماً ، وعرف من بعض أهلها ، أنها على استعداد للزواج منه . ولما كان الرجل متقاعداً من وظيفة بسيطة ، يكاد راتبه للتقاعد ، يكفيه وحده بأعجوبة ، فقد سال لعبه لفكرة الزواج من هذه المرأة ، صاحبة الأملاك والأطيان . تصور أنها

ما دامت تقترب من الثمانين ، فلا بد أن تقضي نحبها قريباً ، فيرث هو كل ما لديها من مال سائل أو جامد • وهكذا فإنه غض النظر عن كل شيء ، لا •• عن طعننها في السن وحسب ، بل عن قبجها أيضاً •

•• وفي الحق ، فإن الرجل لم يرض معها « صهرَ بيّت » أكثر من بضعة أشهر •• لقد استطاع أن يصبر على هرمها ، وعلى قبج منظرها •• لكنه لم يستطع أن يصبر على بخلها وتقتيرها ، إذ أنها كانت ترفض أن تنفق على بعض شؤون البيت قرشاً واحداً ، مما لديها • وكانت (صاحبة مزاج) ، تحب النزاهات والسيارين والرحلات ، فكانت تكلفه أن يذهب بها بين المطاعم والمتنزهات والمصايف •• على أن يدفع نفقات ذلك جميعاً من كيسه •

•• في المقابل ، كان للمرأة في هذه الطبقة من المجتمع ، وجه آخر ، تتداخل فيه الرغبات المكبوتة ، والنزوات ، بلون جميل من الفن • وكانت لذلك طقوس قد تمارس في أيام معينة •• أو دونما نظام •

ويصف الدكتور الداغستاني بعض هذه المجالس التي شهدها بنفسه في حديقة المنزل الكبيرة :

« وخرج نسوة البيت وضيفاتهن إلى الحديقة • وسرعان ما اخترن موقع الضفة من النهر ، أمام الناعورة ، وفي ظلال تلك الدوحة ، ليشربن هنالك قهوة الصباح • ومدت السجاجيد ، ومن فوقها الطنافس والأرائك ، ونقلت المقاعد والأواني » (٧) •

« وأوشك السمر بين الزائرات ومضيفاتهن أن يكون رتيباً ، بعد أن تناولن قهوة الصباح ، فاقترحت إحداهن أن يصار إلى الغناء والموسيقى ، فجيء بالعود وأعطى لسامية خانم • وكان العود آلة الطرب الوحيدة ، التي لا يخلو منها بيت دمشقي قديم •

وترددت في الضرب ، تتعمّل التواضع وعدم المعرفة ، ثم ما لبثت ، وقد ألحّ عليها الجمع أن احتضنت العود ، وبدأت تشنشن وكأنها اللاعب المتمرن ،

وتطلب إلى فهمية خانم جارتها أن تساعدتها في الغناء ، وتصلح من الموازين ثم
تعتمد إلى ملاعبة الأوتار والضرب عليها ضرب الفنان الماهر ، وإذا بأنغام
(التقسيم) تخرج من بين أناملها قوية شجية مناسبة . . ولا أبعث على الروعة
والطرب .

وتأخذ فهمية خانم ، نابغة الفن الشامي الذي حجبته ظلمة التقاليد إذ
ذاك ، بالغناء ، على نغمات العود ، تنشد أبياتاً أندلسية شجية ، ثم تتبعها
بموشح أندلسي قديم رددت مقاطع منه بعض من حضرن ، وكان موشحاً قديماً
مطلعه « لما بدا يثنى » (٨) .

... بعض هذه المجالس ، كان يعقد بين النساء بانتظام ، كأن تلتقي
النسوة في يوم معين من الأسبوع أو الشهر ، لقاء يدعى « الاستقبال » .
وما زال بعضهن يعقدنه حتى الآن . .

وما تزال في الذاكرة أطراف من هذا « الاستقبال » ، ترجع الى أيام
الطفولة ، وقد شهدت بعض هذه الاستقبالات ، على نحو غير مباشر ، في منزلنا أو
منازل بعض الأقرباء .

طبيعي ان الذكور ، كانوا يُستبعدون من هذه المجالس ، حتى لو كانوا
صغاراً ، لكن الفضول المحرق ، كان يدفعني الى التلصص على «الاستقبال»
بهذه الطريقة أو تلك . وذات يوم كان عمري بضعة عشر عاماً ، وقد علمت أن
استقبالاً يقام في أحد البيوت ، يحضره كثير من أهلي النساء . ولما كان بين
الحاضرات صبية ، عرفت يقيناً أنها بينهن ، وكان بيني وبينها نظرات
وابتسامات وسلامات ، في الخفاء على الماشي ، وقد مر زمن لم أرها فيه ، فقد
انتظرت حتى هبطت العتمة ، فتناولت بعض ثياب أمي وأختي الكبرى ، فارتديت
ما ناسب جسمي منها ، بما في ذلك « الكندرة » النسائية ، ووضعت مندلياً
حجبت به وجهي ورأسي . . وقرعت الباب ، ففتحت لي إحدى النسوة ، ولكن
ما إن صرت بينهن ، حتى انفضح أمري . . وصحن جميعاً : هذا فلان . .

... والواقع أنني حين نويت أن أقدم على هذه الفعلة ، لم أحسب حساباً
لهذا المأزق الحرج الذي أوقعت نفسي فيه ، ولا . . للخجل الغامر الذي

احتواني . ولكن كان حسبي ، على كل حال ، أني رأيت حبيبة القلب . . وليكن بعدها ما يكون . .

وعندما عادت والدتي الى الدار ، حارت كيف تلملم الضحكة عن وجهها ، وهي تحاول أن تعنفني وتوبخني .

من الطبيعي أن يكون الاستقبال فرصة سانحة للقاء النسوة . ولكن بعضهن ، كن يدخلن الدار ، فلا يخرجن منها الا لزيارة بيت أهلها تحديداً ، في موعد محدد بدقة ، وعلى أن يرافق المرأة الى الدار زوجها أو أحد أولادها . وبعضهن ، كن يدخلن الدار ، في بعض بيوتات الشام الكبيرة ، فلا يخرجن منها على الاطلاق ، ذاك أن فيهما مدفناً لأفراد الأسرة فاذا توفيت المرأة دفنت فيه .

وحدثني أحد الأصحاب قبل سنوات ، أنه سحب أمه مرة في زيارة الى بيت أهلها ، ولكن دون أن يحاط رب الأسرة علماً بذلك ، في وقت سابق . وفوجئت المرأة - الزوجة وهي في دار أبيها صبيحة اليوم التالي بعربة يجرها رجل ، كانت تدعى « كراجة » تحمل متاعها . وعرفت المرأة أن زوجها في سبيله الى تطليقها . وبدأت الوساطات بين الطرفين ، الى أن رضي الرجل باعادة زوجته . . أخيراً ، شريطة ألا تعود إلى مثلها أبداً . وقد ظلت المرأة شهوراً طويلة ، بعد ذلك ، محرومة من زيارة أهلها . . ثم ان الرجل ، درج اثر هذه الحادثة ، كلما غضب من امرأته ، على أن يطلب منها ما يلي :

يقول لها : هناك في الكتبية العليا زبدية ، اصعدي فناوليني اياها . واذ تاتيه بها يقول لها : اعددي الليرات الذهبية فيها . فتذكر له عددها . . حينذاك يقول : هذا مؤخر نقدك - مهرك - أليس كذلك ؟ . .

. . وفي المرات التالية ، في لحظات الغضب أو الغيظ ، يطلب الرجل اليها أن تصعد الى الكتبية ، فتعز الزبدية التي تضم الليرات الذهبية . . دون أن تعدها . . تهزها هذا فحسب كي تذكر أنها خاضعة في أي لحظة للطلاق .

النساء اللواتي كان يتاح لهن حضور الاستقبال ، كن في الأغلب متزوجات من رجال متنورين ، غير متعصبين كثيراً ، وبعض هؤلاء موظفون ، أو من الشرائع الاجتماعية الميسورة .

تدار فناجين القهوة في الاستقبال ، وتقدم بعض الأشرطة ، غير الكحولية بالطبع . وتكون ثمة ضيافة من فاكهة أو حلوى ، أو الاثنتين معاً . وأحياناً يكتفى بالقهوة ، ذاك أن المعول عليه هو اللقاء . .

وخلال ذلك تدور الأحاديث والفكاهات . . وتضرب بعض النساء الحاذقات على العود ، ولا بد أن تغني احداهن . . ولا بد أن ترقص امرأة أو أكثر . . وكانت دارجة في مثل هذا الاستقبال ، رقصة « ستي » تعزفها احداهن على العود ، فترقص صبية . . أو صبايا ، بعد أن يحزمن الخصر بشال أو أي شيء مشابه .

وقد يأخذ بعض المشاهد في الاستقبال طابعاً تمثيلياً ، فترتدي احداهن ثياب الرجال ، وتدخل على النسوة ، فتقلد سلوك الرجال وتصرفاتهم في الذهاب والاياب والحركة والكلام . وكما يقول الأستاذ منير كيال ، فقد تحاكي سلوك أحد الرجال المعروفين عندهن وطباعه ، بأسلوب هزلي لا يخلو من المبالغة (٩) .

أذكر جيداً تلك المرأة التي قامت تغني وترقص ، وأنا أراها خفية من طرف شباك ، وهي تحاول أن تتحدث عن الرجل الذي لاحقها في الطريق :

لاحقني بايده - بيده - بصطون - (عصا أنيقة خاصة)

لابس بدلة « شارلستون » - (طراز من ثياب الرجال)

والله لبيته بالكركون - (قسم الشرطة . .)

يه . . يه . . بعده لاحقني . .

لاحقني بايده سيكارة . .

عامل زعيم . . بالحارة

والله لبيته بالنظارة . .

يه . . يه . . بعده لاحقني .

. . ومن هذه الأغنيات الراقصة ، واحدة تكتظ فيها الرغبات المكبوتة

والنزوات النائمة حبيسة الأعماق :

جاء لي المشط بالورقة

قال لي تسرحي يا شبة - (الأغلب ان المقصود : شبة ، والمعنى معروف)

قلت له شعري ما بيلقى - (لا يحتمل)

سرحني .. وأنا نائمة

جاء لي البودرة بالورقة

قال خلدي يا شبة

قلت له خدودي ما بتلقى (لا تحتمل)

بودرني .. وأنا نائمة .

.. وهناك أغنية أصرح وأكثر كشفاً أوردتها الأستاذ كيال أيضاً :

حط ايده على راسي . وآه يا راسي

هو استحي ، وأنا ما استحييت

حط ايده على عيني . وآه يا عيني

هو استحي وأنا ما استحييت

حط ايده على تمّي . وآه يا أمي

هو استحي وأنا ما استحييت (١٠) .

وربما ذهبت أغنيات الاستقبال أبعد من ذلك :

يا قضاة مغبرة يا قضاة يا ناعمة

شوف عيني شوف حركاتي الناعمة

— والقضاة من النقولات ، وهي حمّص مشوي ..

على أن بعض الرجال لم يكن يحب أن يرى في بيته فتاة أو امرأة تعزف أو تغني . ويروي الأستاذ نجاة قصاب حسن في كتابه «جيل الشجاعة» ما يلي :

« دخل أبي مرة إلى الدار فوجد بنت عمتي الصبية تمسك العود فقال لها :

— خالو . أرني إياه .

فأعطته العود فوضعه في بحرة الماء، وذهب العود المسكين ، لأن الوالد لم يرد أن يرى بنتاً تعزف على العود في بيته (١١) .

• • كان الرجل امبراطوراً بمعنى الكلمة، ولكن المرأة لم تكن امبراطورة. كانت أحياناً غانية ، وأحياناً أخرى : أمة .

كان يخجل من أن يقول « زوجتي » فيقول « التي عندي » أو « أهل البيت » وفي بعض الأوقات • • كان يقول كلمات بشعة .

المرأة كائن وظيفته العمل بصمت، والصبر بلا حدود ، وكظم الغيظ بلا نهاية . تزوج وتزف إلى رجل لا تعرفه • • دون أن يكون لها يد في ذلك ، وتطلق لسبب أقل من تافه أحياناً ، لأنها أزعجت حمايتها ، أو زوجها ، ربما كانت كلمة أو حركة أو إشارة .

وكان الرجل يأتيها بضرة ، فلا تستطيع أن تفتح فمها بكلمة . فإذا كانت قوية جداً ، وأراد الرجل أن يريح رأسه ، أسكن الزوجة الجديدة في منزل آخر . حدث هذا لامرأة من أسرتنا . كانت سمراء ، لكنها جميلة الملامح جذابة ، غير أن زوجها ، خطر له فجأة أن البيضاء البضة الشقراء امرأة جديرة بأن تكون له ، ودون عناء كبير وجدها • • أذكرها • • كانت طوالة شقراء زهراء ذات عيني زرقاوين • • ولكن • • كان لها ولد من رجل زفت إليه من قبل . فجاءت به معها • • وكان هذا يدعى « قاروطاً » والأغلب أن معناه : المقطوع .

• • في المقابل قد تكون للزوجة الثانية « الضرة » قصة أخرى ، ربما لم تكن علاقتها وثيقة جداً بنزوات الرجل ورغباته • • وهذا ما ترويه السيدة أمينة عارف الجراح في كتابها « أيامي كانت غنية » فتقول :

« أكثر الجيران في حيننا تزوجوا مرتين ، اذ غالباً ما تكون الزوجة الأولى عاقراً - عفواً من السيدة أمينة فهذه مبالغة وليست قاعدة - وهم يرون الأولاد زينة الحياة الدنيا، ويساعدونهم في أعمالهم ، ويكونون سنداً لهم عندما يشيخون، أو تكون الزوجة الواحدة لا تكفي للقيام بأعمال البيت والمساهمة فيما تتطلبه حرفة الزوج • • »

وتمضي السيدة أمينة قائلة :

« فجارنا السمان أبو كاسم كان يجلب بضاعة دكانه من الأسواق ، ويحملها بنفسه لأنه لم يكن من أصحاب رؤوس الأموال الكافية ليضع عنده أجيراً

يساعده . ولكن زوجته العاقر لم تكن تكفي وحدها لتقوم بغلي حلة كبيرة من الحليب ، كل يوم وترويبها لبناً ، ولا للقيام بباقي أعمال مؤونة البيت والدكان . فقد كانت تصفّي اللبن في أكياس ثم تجففه كرات وتضعه مع الزيت في قطرميزات معدة للبيع . كما تجهز الزيتون ورب البندورة وغير ذلك . ولا ننس أن الناس لم يكونوا يجدون وقتئذ ما نجده اليوم في الأسواق جاهزاً من المعلبات . فلذلك كله ، تزوج أبوكاسم من الثانية ليضيف يدأً عاملة أخرى ، لينجز أعماله الكثيرة . »

وتصف الكاتبة عرس أبي كاسم الذي دعيت إلى حضوره بقولها :
« دخلنا تلك الليلة إلى صحن دارواسعة ، تتوسطها بحرة حولها أصص الأزهار الملونة الجميلة ، وقد وزعت في أرجائها كراسي المدعوات حول البحرة والأحواض . وجلست العروس في صدر الدار في « ليوان » كبير ، وعلى أريكة مرتفعة : الأسكي والابتسامة لا تفارق ثغرها .

ورأيت الجميع يهمسون ويشيرون إلى صبية سمراء أميل إلى السمنة ، لها عينان جميلتان جداً ، لا أنسى إلى الآن بريق سوادهما ، ولها شعر فاحم طويل رفعته بعقصة حلوة خلف رأسها . وسمعت من تقول إن الحلق الذي زينت به أذنيها هو « اللوعة » التي اشتراها لها زوجها بمناسبة زواجه الجديد من سواها . والاسم - أي : اللوعة - يدل على المغزى . فعرفت عندئذ أنها الزوجة الأولى ورأيتهما تنتقل بين المدعوات تؤانسهن . » (١٢)

ان الكاتبة الكريمة ، تكتفي بتصوير المشهد ، دون أي تعليق ، فكأنها أرادت أن تترك لقارئها وحده ، أن يتخيل مقدار المذلة والهوان اللذين كانت تشعر بهما الزوجة الأولى ، وهي تطوف على المدعوات ، تؤانسهن في عرس ضررتها ، متظاهرة بالبهجة والفرح . وأي بهجة ، وأي فرح . . ألا يذكرنا هذا بقول الشاعر :

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طرباً فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

.. وهو ليس ألم دخول امرأة أخرى بيت الزوجية ، في قوة القاهرة لا قدرة لها على مواجهتها . . فحسب ، بل هو الألم الذي تتكشف فيه كل عناصر القسر الاجتماعي والميراث التاريخي من اضطهاد الرجل للمرأة . .

وتمضي السيدة أمينة عارف الجراح في تصوير المشهد العجيب الذي
يتعاقب فيه القهر والمسرة معاً :

« ثم بدأ عزف العود ، ورقصت الصبايا على أنغامه حتى كانت الرقصة
الأخيرة قبل مجيء الزوج . وهنا وقفت العروس بثوبها الأبيض ، ببغدة ودلال ،
ووقفت الزوجة الأولى وراءها - وراءها أيضاً - وبدأتا الرقص وهما تسيران
وتغنيان . وبين الأغنية والأخرى ، كانت الزوجة الأخرى لا تبخل بتلبيعات
ترسلها من الخلف لضرتها الجديدة - والتلبيعات كما هو معروف ، وكما توضح
الكاتبة تحريك كف اليد بأصابعها الخمس ، في شيء من الخفاء ، بما ينم عن
الغيظ وتمني الشر - .

.. وكان في غنائهما نوع من اخوار يعبر عن المواقف - تبدأ القديمة تغني :

آه يا يمّا من جوز التنتين حمل وجمّل ، على بغلتين
فتقول العروس الجديدة :

أنا الجديدة ، على قلبه لديده	بحمّي الجديدة ، وبلطه ع الجنين
وبقول له بدّي غصب عنك بدّي	وبقول له بدّي ما يعرف شو بدّي
وبقول له بدّي وبدي وبدي	بدّي حلق الماس يكون حقه ألفين

ثم ترددان معاً : آه يا يمّا من جوز التنتين

وتعود القديمة إلى الغناء قائلة :

أنا العتيقة محبة وصديقة	بحمّله العتيقة وبخاف عليه من العين
وبقول له بدّي دخيلك بدّي	وبقول له بدّي الله يخليك بدّي

بدّي صحن مجدرة عليه بصلتين (١٣)

اذن ، وكما يمكن الاستنتاج ببساطة من هذه المحاورة ، فالمرأة الجديدة ،
المفترة بجمالها وصباها وجدتها ، هي انसानة متطلبة جداً ، لا حدود لرغباتها
وما تريد الحصول عليه . وهي جشعة ، حتى انها تريد أقراطاً من الماس ثمنها
ألفا ليرة سورية . وبحساب بسيط ، نعرف قيمة هذين ألفين من الليرات

السورية • فقد كان ثمن الليرة الذهبية الواحدة في تلك الأيام من الثلاثينات والأربعينات ، خمس ليرات سورية تقريباً • أي انها تساوي أربعمئة ليرة ذهبية ، تعادل بعملة هذه الأيام مليوني ليرة سورية •

•• أما الزوجة الأولى ، العتيقة ، فهي محبة وصديقة ، تخاف على زوجها من عين الحاسدين رغم كل شيء ، وهي لا تريد سوى أن يحفظه الله ، وفي الأكثر فانها تريد « صحن مجدرة » هذه الأكلة الشعبية الرخيصة •• مع بصلتين •

•• ونعود الى حفلة العرس « فبعد أن انتهت رقصة الزوجتين معاً ، جاء العريس ، فحدث هرج ومرج • وأسرعت المدعوات الغربيات الى تغطية رؤوسهن ، واستعدت القريبات للمشاركة في استقباله والتوجه به الى الداخل . وتقدمت الزوجة الأولى متأبطة ذراع العروس الجديدة ، تقتربان ببطء من الزوج ، وتأخذان مكانهما الى جانبه ، ثم تسيران معه حتى يصلوا الى الغرفة المخصصة للعروسين ، فيجلسان معاً ، وتنسحب القديمة من الغرفة بعد أن تفتح لها « سَبَت » السكاكر قائلة : « مبروك ، إن شاء الله ، وبالمال والبنين » (١٤) •

وتتذكر الكاتبة أنها في تلك الليلة لم تعد ترى الزوجة القديمة بعد ذلك حتى انتهى العرس ، ورجعت - أي الكاتبة - الى البيت • ثم انها تقدر بالتأكيد ان الزوجة الأولى ، بعد ذلك الكبت الشديد لانفعالاتها ، اختبأت مع من يشاركها حرقتها واستسلمت للنحيب ، لتفرغ الحزن الشديد الذي طوته في صدرها •

••• وتذكر السيدة أمينة أنها « سمعت مرة من الجيران غمراً ولمزاً ، وقالوا انه في احدى الليالي التي كانت مخصصة للزوجة الجديدة - اذ يقسم الزوج ليليته بين زوجاته - فتحت القديمة الباب عليهما فجأة ودخلت • وحردت الجديدة وغادرت البيت عدة أيام ، حتى عاد الزوج فصالحها ورجعت واستمرت معاً تتعايشان وتتساعدان في الأعمال المطلوبة منهما • »

« وكانتا عندما تجدان وقتاً للراحة من أعمال الدكان والبيت تجلس كل منهما لتحوك (كمراً) بغرزة خاصة من طرفيه • وبين مدة وأخرى يأتي من يقدم لهما هذه الأكمار

ليأخذ ما أنجزتاه ويعطيتهما أجرتهما ، ويقدم لهما دفعة جديدة من الأعمار ، وهكذا
دوايك • والزوجتان تشتريان بما تأخذانه من نقود ما يلزمهما من ثياب وحاجات ، فلا
تكلفان الزوج الا ثمن اللقمة • « (١٥)

وتروي الكاتبة حكاية زواج آخر ، تزوج فيها الرجل امرأة ثانية لأنه لم
يرزق أولاداً من الأولى ، فقامت زوجته الأولى فخطبت له وزوجته • وحملت
الزوجة الجديدة منه • ولما ولدت جاءت الزوجة الأولى فأمرّت المولود ساعة
ولادته من طوقها - أي أنزلته من رقبة الثوب الذي ترتديه - فكأنما صار
ابنها • وقد توفيت الجديدة أم الأولاد بعد فترة ، وبقيت القديمة تعتني
بأولاد زوجها ، كما لو كانوا أولادها وتتفانى في إسعادهم حتى كبروا • « (١٦)

• • وبمناسبة الزواج من امرأة ثانية، تستطرد السيدة أم سلمى فتذكر
أغنية كانت قد سمعتها :

جوزي تجوز عليّ وأنا لسه الحنة بايديّ
ساعة ما دخلت عليّ
دي نار يا ناس نار ، نار ، نار ، نار
دي نار يا ناس شعلت فيّ
الذنب ايه اللي عملته وجهازي لسا ما فرشته
بيّ العذول ليه شمتة ؟
أكثر عذابي من أخته دي نار يا ناس ، نار ، نار
دي نار يا ناس شعلت فيّ
حرام عليك أنا لسه صغار كتير يا قاسي يا غدار
دوقتني كاس المرار من كتر سهري ليل نهار
ودي نار يا ناس نار ، نار ، نار ، نار (١٧)
ودي نار يا ناس شعلت فيّ

ويقدم الأستاذ نجاة قصاب حسن ، الوجه الآخر من هذه الصورة في كتابه
« جيل الشجاعة » نقلاً عن الفنان عبدالغني الشيخ :

احترت واضطربت أفكارى ما بين مرتي والحما
 رايح طير من نارى بين الأرض والسما
 كل يوم من الصبحة بتجي لي مرت عمي : - امرأة عمي -
 ما بتروح لعشيّة حتى تنشف لي دمّي
 فيه لحمات أكلتهن فيه مرقّات شرفتهن
 فيه مصاري لفتهن حكاية ما كنت أفهما
 كل يوم بتفهمها لبنّتا انها تدشّرني : - تتركني -
 وبتقعد بتعلمها اليوم قولّي له : طلقني
 قولّي لي ركبني همك ما بقعد أنا وأمك
 أبوك وأخوك وعمك همهم بقلبي ارتمى
 اليوم اعملي تفشيشة قولّي تضرب ها لعيشة
 كل يوم جبنة وقريشة عيشة ما راح تتسمّى (١٨)

إذن فالمرأة ، وهي هنا حماة ، طفيلية ، تتطفل على بيت ابنتها
 لتحرضها على زوجها ، نهابة فرص ، جشعة ، لئيمة ، نهمة ، مؤذية وسارقة
 أيضاً .

وكنت قد سمعت من بعض الأصحاب ، قبل سنوات بعيدة ، مونولوجاً
 مشابهاً لكنه منسوب لسلامة الأغواني ، ولست متأكداً إن كان له . أو لسواه .
 وفيه تظهر المرأة ، حتى . . وراء الجريمة . وهذا يذكرنا بما سبق أن قيل :
 فتش عن المرأة .

يقول المونولوج :

يا ما قريت بروايات وسمعت قصص وحكايات
 قتلى وجرحى وجنايات كون أمين : كلها أسبابها الستات
 (كون أمين : كن متاكداً)

. . فيه اتنين بيحبو بعضن أكثر من أخين
 طلّعوا سوا لشم الهوا تقابلوا بتنتين

ضحكوا معهم وضحكوهن ، وبعد شوية عزموهن
قامت الواحدة وحببت الواحد ، وهي فعل النسوان
قام الثاني وقتل رفيقه وهو مالو دريان
واللي انقتل واللي مات •
مات وعيونه بتقدح ع الستات ••
•• فيه انسان بيعب واحدة وسلمها قلبه
ما تاريها ها لشيطانها ، هي ما بتجبه
هو يعاملها بالمنيح ، وهي تعامله بالقبيح ••
فيه شوفير مارق بسرعة زمتر له ما حسن
يا خسارة على شبابها المسكين اندعس ••
واللي اندعس ، واللي مات ••
مات •• وعيونه بتقدح ع الستات •

•• هذه المرأة اللعوب ، التي تتوارى وراء الرجل الذي قتل صديقه الذي
يحبها أكثر مما يحب أخاه ، وكانت وراء الرجل الذي شغلته وأذهلته ••
حتى مضى شاردأ في الطريق فلم يسمع صوت بوق السيارة فمات
دعساً •• هي نفسها شاغلة الرجال ومالئة دنياهم •• فهم حتى •• في لحظة
الموت •• يتطلعون إليها ، ويتمنونها •• وعيونهم شاخصة إليها ••

••• على الضيفة الأخرى ، من هذا النهر ، كانت تعيش امرأة مختلفة ،
يمكن أن ندعوها ، المرأة الكادحة المناضلة في سبيل العيش الشريف • هي
امرأة فقيرة حقاً ، لكنها غنية بكبريائها وعزة نفسها •

ويقدم الأستاذ جمال الفرا ، نموذجاً لهذه المرأة في كتابه «الله يعمرك يا حي
الوردات» • فالسيدة جيهان امرأة ، ما عرف الحي امرأة في مثل جمالها ، «حتى
إن الحاجة للتقية الورعة قالت إنها حورية من حوريات الجنة • وحين كانت
جيهان تقصد إلى حمام نور الدين ، تتجمع النسوة حول جرنها يملأن العيون
من حسننها : شعر كستناوي منسدل كالحرير ، فوق بشرة تتلألأ بيضاء متوردة ،
وعينان خضراوان دباّحتان وسمات ملائكية •» (١٩)

.. وكان زوج جيهان هذه « موظفاً في إدارة المالية يعمل كاتباً في لجنة تقوم بجولات في الأرياف لتخمين ضرائب الأعشار وتعداد الأغنام » (٢٠)

« .. وفي ذات يوم غادر شاكر أفندي - زوج جيهان - مع اللجنة إلى قرى المرج ، وانقطعت أخبار اللجنة . من قائل إن أحد شيوخ القبائل خطف أعضاءها رهائن ، ومن قائل إن كميناً نصب لها ظناً أنها تنقل الأموال » و « بعد حوالي عام اعتبر شاكر وأعضاء اللجنة في حكم المفقودين » (٢١)

فماذا فعلت جيهان خانم بعد ذلك ؟

« ما كان لزوجها في حياته سوى راتبه الضئيل ، وجاء المعاش التقاعدي لورثته أقل . نصف مجيدي للزوجة ، وربع مجيدي للبنات سعاد . دون كفاف العيش . وليس أهون على جيهان من أن تجد زوجاً ميسور الحال ، والتائقون إليها في الحي كثيرون . لكنها وهي الشجاعة الأبية آثرت الاعتماد على نفسها ، فعمدت إلى عمل يدوي ، هو تخريج العباءات وحبكها ، تقضي الساعات ، طوال النهار ، مكبة عليها قرب النافذة المظلة على الحارة ، سعيّاً وراء مزيد من النور . »

« كان الحاج عبد الله حميدان ، وهو تاجر في سوق العبي ، يحمل إليها بعد ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع ، مجموعة من العباءات ، وملفاً من خيوط القصب المذهبة . ويسترجع ما أنجزت منها وينقدها أجراً عليها : نصف قرش صاغ لتخريج العباءة البغدادية ، وربع قرش صاغ لحبك العباءة البداوية . عمل مضمّن رخيص ينهك عينيّن من أجمل ما خلق الله . » (٢٢)

.. من هذا القبيل امرأة سكنت في بيت جدتي في مئذنة الشحم . كان البيت كبيراً ، فيه أكثر من سبع غرف . استأجر زوجها غرفة تطل على الشارع المستقيم ، وكان موظفاً بسيطاً متقاعداً ، أضف إلى ذلك أن مرض السكري كان ينهش جسده نهشاً ، ويمنعه من القيام بأي عمل .

جاءت امرأته ، وكنيتها « أم فهد » بآلة تريكو ، وضعتها في طرف الغرفة ، كانت تعمل عليها ، فتدر عليها مالاّ يعينها على حياتها مع زوجها . المريض المتعب .

•• وكان بعض نسوة الحي يعملن في تغليف سكاكر « الكرميل » ، يؤتى بها من بعض معامل السكاكر قرب « البزورية » ، عارية ، كما قطعتها الآلة •• فتضاف إلى كل قطعة ورقة كتب عليها عبارة من عبارات « الحظ السعيد » ثم تغلف بعد ذلك بورقة من « السلوفان » كتب عليها اسم المعمل •

وكانت في الحي امرأة خصصت إحدى غرف المنزل ، ليكون مطرحاً لتزيين النساء ، وهي المهنة التي تدعى صاحبته اليوم « كوافورة » • وكان أهل مئذنة الشحم يدعونها « كواية » حيناً و « قصاصة الشعر » حيناً آخر •

هذه السيدة كانت تساعد زوجها •• غير القادر تماماً على إعالة الأسرة • وكانت عمتي تقيم في الحي نفسه • وقد عرفت منذ وعيت وحيدة دون زوج • ولست أعرف بالضبط قصتها الحقيقية مع زوجها ، ولكني لا أشك أنها كانت مطلقة ، وإن كنت عرفت أن زوجها السابق ، المقيم في أحد أحياء الصالحية ، مريض •

•• ولم يحدث أن زرتها مرة ، إلا ورأيتها منحنية إلى آلة الخياطة ، أو منصرفة إلى امرأة أخرى عندها ، تجرب على قامتها الثوب الذي تخطيه لها •

وما سمعتها مرة تشكو أو تتذمر . ويوم كنت أذهب لزيارتها مع أمي ، دون أن تكون عندها إحدى الزبونات ، كانت تدفع آلة الخياطة جانباً •• ثم تنصرف مباشرة إلى إعداد القهوة ، في الغرفة نفسها على « البابور الساكت » • وخلال ذلك تروي الأخبار والحكايات •• والنوادر • وإذ تنتهي أمي من رشف قهوتها ، فإن عمتي كانت تتناول الفنجان فتطبه •• وبعد قليل ، حين يجف •• تبدأ تقرأه وتبصر فيه ••

•• ومن مهن النساء التي كانت ما تزال في ذلك الحي ، في الأربعينيات : المرضع • وكان في الحي بعض الأغنياء ، ينطبق عليهم ما ذكره جمال الدين القاسمي و خليل العظم في « قاموس الصناعات الشامية » فهم « عند وضع نسائهم ، يخافون على صحتهم من الرضاع ، فيأتون لهن بالمرضع لأطفالهن • ومن النساء من تضع ولا يدر لبنها فيؤتى لها بالمرضعة » •

وهناك « الداية » التي لم يفهم الشيخ سعيد القاسمي معناها بدقة ولكنه وجد أن ابن الداية في اللغة ، هو الغراب . وهذه المرأة هي التي تدعى في هذا الزمن : القابلة ، « وهي صنعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه ، من الرفق في اخراجه من الرحم وتهيئة أسباب ذلك » (٢٣) .

« والماشطة » وهي الداية نفسها . لكن في صورة أخرى « ذلك أن كل بنت تزوجت تأتي ليلة الزفاف دايتهامعها ، لا تفارقها أبداً ، وهي التي تمشطها ، أي تسرح شعرها وبذلك سميت « ماشطة » وتزينها بأصناف الحللي والحلل والشكول » .

والماشطة ، كما يوضح قاموس الصناعات الشامية ، تقوم بدور الخادمة لدى العريسین ، منتظرة أمام باب مخدع الزوجية ، لتنفذ ما يطلبه منها الزوجان . ويشير القاموس الى وظيفة أخرى للماشطة ، ظلت سارية المفعول حتى الأربعينيات ، فقد تتهيب العروس من غشيان زوجها، فينادي الزوج الماشطة فتحضر وتمسكها أو تقعد على صدرها، وترفع له رجليها قسراً ، وتشير عليه أن يفعل ، وهي - أي العروس - تصرخ وتستغيث ، وقد وقعت من جراء ذلك حوادث مؤلمة ، كثيرة ما أفضت الى موت البنت (٢٤) .

• • على ان الحب في هذه الأوساط الشعبية ، كان كثيراً ما يفتقر الى تلك اللمسات الرومانسية الشعاعية الجميلة التي حدثنا عنها الدكتور كاظم الداغستاني . ذاك انه كان يتخذ في بعض الأحيان طابعاً عدوانياً ، ربما وقعت خلاله بعض الجرائم ، أو حدثت فضائح ، طويت بتزويج الشاب الفتاة التي أحب • • فالتقى بها خفية ، فكان ما كان بينهما ، وجر عقابيل خطيرة • • كالحمل غير الشرعي .

ولكن هذا لم يمنع من قيام علاقات عاطفية عذرية جميلة ، دون أن يكون بين الحبيبين أكثر من تبادل الرسائل والهدايا البسيطة في سرية تامة • • وفي الأغلب ، فان مثل هذه العواطف لم يكن ينتهي بالزواج .

• • كان في حارتنا - مئذنة الشمع - شاب متين البنيان ، وسيم الصورة ، قوي العضلات ، لممارسته بعض ضروب الرياضة • • زواج صبية أصغر منه بأكثر من خمسة عشر عاماً • • ورزق منها ببعض الأبناء • •

وبعد سنوات قليلة ، وقعت هذه الصبية ، في هوى فتى يماثلها عمراً ، وهو الآخر وسيم المحيا ، أخضر العينين ، لطيف المعشر . . .
كان في استطاعة الزوج القوي ، أن يفعل شيئاً ، دون القتل ، وكان قادراً على أن يؤدب العاشقين جسدياً ، دون إيقاع أذى كبير بهما ، لكنه أثر طريق العقل ، فطلق امرأته . . . التي تزوجت بمن تهوى غير أن سمعتها ساءت كثيراً بعد ذلك في الحارة المحافظة .

ومن القصص الجميلة هنا ، ما حدث لذلك الفتى إذ كان يتنزه وحبيبته على ضفة أحد الأنهار في بعض أطراف دمشق ، فرأت بعض أهلها من بعيد ، وارتبكت ولم تعد تدري ماذا تفعل ، فما كان من الفتى إلا أن ألقى بنفسه في النهر الطامي ، وكان يتقن السباحة ، ثم خرج عند الضفة الأخرى من النهر .
كان ذلك ، في شهر آب اللهب ، والفتى غارق في عرقه ، من شدة الحر ، ومن حرج الموقف وخطورته . . . فاذا هو يصاب بمرض خطير - ذات الجنب - كاد يودي بحياته .

. . . في تلك الأيام كان الحجاب هو السائد بين النساء ، وإن تكن له أنواع ثلاثة : « الملاءة الزم » وهي سوداء تغطي الجسد بكامله فلا يظهر منه ملمح ، ولا تُعرف مرتديته أعجوز هي أم صبية .

النوع الثاني هو الملاءة السوداء ذات القطعتين ، الأولى تغطي الرأس والكتفين والجذع ، وعند الوجه منديل مزدوج ، ربما تجرأت المرأة فرافعت أحدهما ، والثانية تنسدل من الوسط إلى ما دون الركبتين .

أما النوع الثالث ، فهو معطف ، أو ثوب عادي من قطعتين ، ليس ضرورياً أن يكون أسود اللون ، على أن يغطي الرأس والوجه بمنديل شفاف يدعى « جرجيت » أو « بنيه » .

. . . وأذكر قبل أن ننتقل للإقامة في منزل جدتي في مئذنة الشحم ، وكان ذلك قبل وفاة أبي ، وبيتنا في حي المهاجرين ، المنفتح نسبياً من الناحية الاجتماعية ، أنني صحبت والدتي في زيارة إلى منزل عمتي في مئذنة الشحم ، فما كدنا نتجاوز سوق الحميدية والبزورية ، وندخل في أزقة الحي ، حتى تراكض

الصبيان وراء أمي التي لم تكن تلبس ملاءة زماً أو من قطعتين ، وانما كانت ترتدي ثوباً ملوناً من قطعتين ، وعلى رأسها « جرجيت » ، وراحوا يصيحون بها : أم « البُنِيَّة » الرقاصة ، يبعث لك حمى ورصاصة .

ولكن بعض النساء في هذا الحي ، كن أخوات الرجال حقاً ، منهن عمتي التي أدركتها في أيامها الأخيرة ، وهي في الواقع أم عمتي . وإن شئنا الدفة فهي خالة أبي ، لكننا كنا ندعو الاثنين : عمّة ، توقيراً وتقديراً .

كانت كنيته « أم حمدي » باسم ابنها البكر ، الذي وعيته واحداً من رجالات الحي الذين يحسب لهم حساب . وكان في الآن ذاته أخا والدي في الرضاع وابن خالته هذه .

عام ١٩٢٥ كان حمدي هذا ، وكنيته « أبو راشد » واحداً من أفراد جماعة حسن الخراط ، التي أخذت على عاتقها إشعال نار الثورة السورية في الغوطة الشرقية ، خريف تلك السنة . فكانت أمه ، تقصد موقعه في الغوطة بين يوم وآخر تحت جناح الظلام ، متابطة سلة كبيرة ، تحمل فيها ما استطاعت الحصول عليه من ذخيرة البنادق ، ثم تغطيها ببعض مؤونة الطعام .

وعندما أخفقت ثورة الغوطة وألقي القبض على بعض رجالها ، كان حمدي من بينهم . وقد رأيت له صورة في كتاب الأستاذ أدهم الجندي ، عن الثورة السورية ، مكبلاً بالسلاسل في سجن القلعة . . .
. . . وكانت أم حمدي ، قد ادخرت بعض القروش البيض للأيام السود ، ولها دار ، باعته وأنفقت كل ما تحصّل بين يديها . . . من أجل إنقاذ غنق ابنها من حبل المشنقة .

الطريف في الأمر أن « حمدي » هذا ، كان من الذين يشربون ، لكنه لم يكن يقرب الشراب طوال الأشهر الحرم ، وكان يلزم المسجد خلال ذلك . . . فإذا أطل فجر عيد الفطر ، لزم مكانه في الدكان التي يبيع فيها التبغ ، وعاد إلى الشرب ، في شيء من الخفاء هو وبعض صحبه . . . داخل الدكان . . . لكنه ، لأمر ما ، في بعض الأمسيات ، كان يغادر دكانه ، ومسدسه في يده ، ليقف قريباً من مصلبة « البزورية » حيث يطلق النار نحو الأعلى باتجاه الرواق الحديدي الكبير .

عند ذاك كان ينقطع الطريق ، فلا يعود أحد قادراً على تجاوزه . وقبل أن
يستخدم الموقف كثيراً ، يقصد منزله من يتولى إخبار والدته ، أم حمدي ، بما
يفعل ابنها ، هذا الذي حج إلى المسجد الحرام أكثر من مرة . سيراً على
القدمين .

تجيء أم حمدي . تقترب من ابنها الكهل . ترفع يدها نحو أذنه ، فتفركها
وتأمره أن يسير أمامها ، فيرضخ ، وهو مطرق برأسه ، ويقبل يدها راجياً إياها
أن ترضى عليه .

بلى . . كانت أم حمدي هذه نموذجاً للمرأة الدمشقية التي واكبت الحركة
الوطنية ، وشاركت في مقاومة الاحتلال الفرنسي . .

وفي السنوات التالية ، في الثلاثينيات والأربعينيات ، كان للمرأة في دمشق
دور كبير في المواجهة ، فسارت في المظاهرات ، مطالبة بالاستقلال والجلء . .
وخلال ذلك اعتقل عدد من النساء أودعن سجن القلعة . .



□ الحواشي :

- | | |
|---|--|
| <p>١٣- المصدر السابق - ص ٧١-٧٢ .
١٤- المصدر نفسه - ص ٧٣ .
١٥- المصدر نفسه - ص ٧٤ .
١٦- المصدر نفسه - ص ٧٥ .
١٧- المصدر نفسه - ص ٧٦ .
١٨- جيل الشجاعة - ص ٤٠٤ .
١٩- الله يعمر يا حي الوردات - جمال الفرا - دار المعرفة -
دمشق ١٩٩٢ - ص ٢٥ .
٢٠- ٢١-٢٢- المصدر السابق ، ص ٢٤-٢٥-٢٦ .
٢٣- قاموس الصناعات الشامية - محمد سعيد القاسمي -
جمال الدين القاسمي - خليل العظام - دار طلاس -
دمشق ١٩٨٨ - ص ١٣٤ .
٢٤- المرجع نفسه - ص ٤٠٩ .</p> | <p>١ - عاشها كلها - د. كاظم الداغستاني - دار الاندلس -
بيروت ١٩٦٩ - ص ٢٨-٢٩-٣٠ .
٢ - المصدر السابق - ص ٢٣ .
٣ - معلومات خاصة .
٤ - عاشها كلها - ص ٣٥-٣٦ .
٥ - المصدر السابق - ص ٢٤ .
٦ - المصدر نفسه - ص ٣٥ .
٧ - عاشها كلها - ص ٢٦ .
٨ - المصدر السابق - ص ٣١ .
٩ - يا شام - منير كيال - دمشق - ص ١٨٦ .
١٠- المصدر السابق - ص ٣٤٤-٣٤٥ .
١١- جيل الشجاعة - نجاه قصاب حسن - مطابع
الألف باء - الأديب - ١٩٩٤ - ص ٣٩٦ .
١٢- إيامي كانت غنية - أمينة عارف الجراح - دمشق
١٩٨٥ - ص ٧٠-٧١ .</p> |
|---|--|